(1)

الطريق إلى غزة

الزمان: الخميس 3 يونيو 1948م

المكان: قطار القاهرة - غزة العسكري

على المقاعد الخشبية الجافة جلس الضابطان المصريان متقابلين وقد خلعا السترة والبيريه وظهر عليهما عناء السفر والسهر الطويل، فقد تحرك بهما القطار مساء أمس من باب الحديد في القاهرة، وما زالت ساعات تفصلهما عن الوصول إلى محطة غزة، فقد عبرا منذ أقل من ساعة فوق كوبري الفردان[1] ومازال أمامهما اجتياز سيناء بكاملها قبل الوصول إلى رفح ومنها لغزة. كانت العربة خالية إلا منهما وضابطين آخرين يجلسان في نهايتها، وكان الضابطان «عبد الحكيم عامر» و«زكريا محيي الدين» يدخنان، ويسليان الوقت بالنظر إلى صحراء سيناء عبر النافذة الزجاجية الواسعة.

فُتِحَ باب العربة القريب منهما ودخل منه ضابطٌ شابٌّ أسمر، وسيمُ القسمات، نافذ النظرات، فارع القامة، وبيديه محرمة بيضاء يجفف بها الماء عن وجهه وذراعيه، وقد جدد حيويته وكانت ملامحه - على عكس زميليه - يقظة، وكانت عيناه العميقتان لامعتين، وهو يضع المنشفة في حقيبته، ثم

(1) كوبري الفردان القديم أنشأه الإنجليز عام 1917م لخدمة المجهود الحربي في الحرب العالمية الأولى، وتم تجديده عام 1930م، وكان يفتح لمرور السفن ثم يغلق لمرور القطارات فوقه، وتم تدميره في حرب 1967م قبل إنشاء الكوبري المتحرك الحالي عام 2010م.

يرتدي السترة والكاب، وقد ترك سترته مفتوحة بحكم حر الصيف، ثم يلتقط كتابه المفتوح من فوق المقعد الخشبي، وجلس ليتابع القراءة.

التفت إليه «عبد الحكيم» قائلًا:

- إيه يا سي «جمال»؟ ما تخليك معانا شوية! وحشاك القراية قوي يعني؟ ده إنت لسة مخلص كلية أركان من أسبوعين[2]!!

ابتسم «جمال عبد الناصر» وهو ينظر لصديقه وابن دفعته في الكلية الحربية بود، وأشعل سيجارة من علبته المعدنية وهو يجيبه قائلًا:

- طيب ما انتو قاعدين بقالكم ساعتين ساكتين، وشبه نايمين كمان!

- عيني عليك باردة يا «جمال»! من أيام الكلية وأنت لو نمت ساعتين في اليوم يكفوك! احنا مش زيك يا عم.

لم يكن «حكيم» مبالغًا في قوله، فهكذا كان اليوزباشي[3] الشاب ثلاثيني العمر «جمال عبد الناصر حسين» دائمًا، متقد النشاط، قليل النوم، وقليل الثرثرة فيما لا يفيد، كما كان كثير القراءة عمومًا، والقراءة

(2) تخرج جمال عبد الناصر من كلية أركان الحرب في 12 مايو عام 1948م.

(3) سافر ناصر للمعركة وهو برتبة اليوزباشي، ثم علق رتبة الصاغ بعد الوصول لفلسطين بأيام وفقًا لتاريخ قرار الترقية.

في العلوم العسكرية والإستراتيجية، والتاريخ، والأدب العربي والعالمي على وجه التحديد!

أجابه «جمال» باسمًا بعد أن أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته:

– تقدر تقول عادة بالوراثة، أجدادنا في الصعيد بيصحوا مع نور الشمس، يصلوا الفجر ويفطروا، ويلبسوا الجلابية الزرقا، ويسحبوا البهيمتين، ويسرحوا على الغيط.

– بس إنت مش بتنام من العشا زيهم!

هكذا علق «زكريا»، فأجابه «جمال»:

– علشان مش شقيان زيهم طول اليوم!

انتهى الحوار الباسم القصير بتلك العبارة، وعاد «حكيم» و«زكريا» للاسترخاء شبه النائم، وعاد «جمال» للنظر في كتابه، لكن ذهنه شرد من صفحة الكتاب إلى العبارة التي قالها منذ قليل. ووجد سؤالا يفرض نفسه عليه: **أحقًا لست «شقيانًا» مثل أجدادي؟ أم اختلفت فقط نوعية الشقاء**. وبدأ مشوار الطفولة والصبا والشباب يمر كالشريط أمام عينيه!

بدأ المشوار في ذلك البيت البسيط رقم 12 بشارع القنواتي المتفرع من شارع مصطفى كامل بحي باكوس في الإسكندرية، يحيطه السور الحديدي الذي يصنع إطارًا لتلك الحديقة الصغيرة التي لا يتجاوز عرضها أمتارًا ثلاثة، هناك ولد، حين كان والده يعمل وكيلًا لمكتب بريد باكوس، وهناك قضى السنوات الخمس الأولى

من عمره مع والدته، قبل أن ينتقل معها ليلحقا بوالده الذي انتقل للعمل في الخطاطبة، وفي الخطاطبة دخل أول مدرسة ابتدائية، ولكنه لم يستمر فيها طويلًا، ولم يسعفه الوقت ليكون أصدقاء طفولة كأقرانه، حين نقل الوالد من جديد فبدا لوالديه أن كثرة التنقل بين المدن وفقًا لطبيعة عمل والده لن تسمح له بالاستقرار الدراسي، فقررا أن يقيم الصغير «جمال» - وهو لم يتجاوز السابعة - في كنف عمه في القاهرة، ويلتحق بمدرسة النحاسين!

قضى «جمال» عامه الأول بعيدًا عن والديه وهو في الصف الثالث الابتدائي، وكانت هذه أول مرارة يذوقها حلقه، وأول مراحل الشقاء، فقد كان ارتباطه بوالدته وثيقًا، حتى إنه كتب بخطه الطفولي أكثر من عشرة خطابات خلال ذلك العام، وكانت والدته تجيبه بخطابات تفيض حنانًا، كانت تنزل على قلبه بردًا وسلامًا! فحنانها المتدفق لم يعوضه عمه رغم حدبه ورعايته، ولم يعوضه ائتناسه بأولاد عمه! لكن ردود أمه على خطاباته توقفت فجأة قبل امتحانات نهاية العام! فقد كان الصغير الذي يناهز الثامنة على موعد مع الألم الكبير الذي جعله يكبر قبل الأوان، وجعل قلبه يعرف طعم الحزن العميق مبكرًا!

أشعل «جمال» سيجارة أخرى من سيجارته، وغص حلقه، وقد استدعى صوت القطار العسكري على القضبان ذكرى رحلته من القاهرة للإسكندرية عصر ذلك اليوم من عام 1926م بعد أن انتهت امتحانات نهاية العام! كان يمني نفسه طوال الساعات الأربع برؤية والديه وإخوته الصغار «عز العرب» و«الليثي» و«شوقي»! لكن أمنيته الأولى كانت أن يرتمي في حضن والدته! الحضن الدافئ الحنون الذي يشتاقه بكل كيانه!

وصل الصغير لمحطة مصر وسار على قدميه عبر شارع النبي دانيال ثم شارع صفية زغلول ليصل إلى محطة الرمل، ويركب ترام الرمل إلى محطة باكوس، ومنها سيرًا على الأقدام حاملًا حقيبته حتى وصل إلى منزله. ليجد الأسرة كاملة في انتظاره عدا والدته! كيف؟ لقد توقع أن يراها تنتظره في الشرفة، لهذا كانت عيناه معلقتين بالشرفة منذ دلف إلى شارع القنواتي! وتعجب عندما وجد الشرفة خالية! كانت تنتظره وهو عائد من المدرسة فكيف لا وهو عائد من سفر طويل؟ وغياب عام كامل؟ هل هي غاضبة منه لسبب ما وهو غافل عنه؟ لهذا توقفت الخطابات ولم يجدها في انتظاره في الشرفة؟ ولا حتى في الصالة مع والده وإخوته؟

سأل عنها فور انتهائه من السلام على والده وإخوته وتقبيله الرضيع «شوقي»! ما زال يذكر وجوم والده عندما سمع سؤاله، وكيف جلس وأجلسه على ساقه وقبل رأسه بحنان وهو يحاول تخفيف وقع الخبر الصاعق! فقد توفيت والدته السيدة «فهيمة» قبل امتحانات نهاية العام بأسابيع، وخشي عليه والده من الخبر فلم يخبره.

التمعت الدموع في عيني اليوزباشي «جمال عبد الناصر» عندما تذكر تلك اللحظة، لكنه لم يبك! لقد بكى كثيرًا في ذاك اليوم البعيد من طفولته، ثم لم يبك بعدها أبدًا! كأنه استنفذ دموعه كلها، أو كأن الدنيا قد صغرت عنده منذ ذلك اليوم فلم يعد فيها ما يستحق البكاء! ولم يكن هذا هو التغير الوحيد الذي طرأ على «جمال» الصغير، فقد صار أقل مرحًا وأقل كلامًا، كما

صار انكبابه على دروسه وعلى مطالعة الكتب أكثر، كأنها يلجأ إلى عالم أثيري يعوضه عن فقدان الركن الأساسي من أركان طفولته!

تزوج والده بعد مرور عدة أشهر، وكانت الزوجة الجديدة سيدة طيبة، لكنها أبدًا لم تحل محل والدته، ولم يساعده التنقل المستمر بين المدارس على تكوين أصدقاء، فمن النحاسين انتقل عائدًا للإسكندرية وملتحقًا بمدرسة العطارين، ثم إلى مدرسة حلوان الثانوية الداخلية بالقاهرة لمدة عامين، ثم إلى مدرسة رأس التين بالإسكندرية من جديد!

تذكر «جمال» تلك الساعات التي قضاها في قسم البوليس حتى جاء والده ليتسلمه! فقد سار «جمال» ابن الخامسة عشرة في مظاهرة للمرة الأولى تهتف بسقوط دستور 1930م[4]! وسقوط الاحتلال. بعدها قرر والده أن يعود «جمال» للقاهرة من جديد، ليبتعد عن مظاهرات الثغر المتلاحقة في تلك الأيام. لكن «جمال» الذي التحق في القاهرة بمدرسة نهضة مصر الثانوية بحي الظاهر، قاد مظاهرة بنفسه خرجت من المدرسة تهتف بسقوط الاحتلال، وأصيب بجرح في جبينه عندما هاجم البوليس الطلاب!!

تحسس اليوزباشي «جمال» جبينه في موضع الجرح، ولم يكن يعلم أنه على موعد مع جرح جديد على أرض فلسطين! كأن جزءًا من قدره أن يحمل على جسده علامات كل مرحلة من مراحل نضاله!

(4) حقيقة، وهي المظاهرة التي أشار لها «عبد الناصر» لاحقًا في خطاب المنشية عام 1954م قبل تعرضه لمحاولة الاغتيال برصاص جماعة الإخوان!

ناصر في سيناء خلال الرحلة إلى فلسطين

(2)

بين المجدل وأسدود

الزمان: مساء الخميس 3 يونيو/ صباح الجمعة 4 يونيو 1948م

المكان: بلدة أسدود: على ساحل المتوسط في منتصف المسافة بين غزة ويافا

أخذ «حكيم» و«زكريا» يتحدثان عن المعركة التي يقبلون عليها، فلم يخرج حديثهما عما تداولته الصحف العربية وقتها، ومجمله أن الجيوش العربية تذهب لتأديب عصابات اليهود التي اجترأت على ارتكاب مجازر وجرائم ضد المواطنين الفلسطينيين، سواء قبل إنهاء بريطانيا للانتداب أو بعده، وكيف جاء هذا كحلقة أخيرة من مؤامرة بدأت بُعَيد الحرب العالمية الأولى بمعاهدة سايكس ـ بيكو! وتحدثا بأن نتيجة الحرب محسومة لصالح العرب! وهنا وضع «ناصر» كتابه جانبًا واشترك في الحديث قائلًا:

- ياريت أكون غلطان! بس أنا مش متأكد من النصر زيكم.

ليه يا «جمال»؟ عصابات الهاجاناة وشتيرن وآرجون هتغلب جيوش مصر وسوريا والعراق والأردن ولبنان والسعودية مجتمعة؟

هكذا علق «زكريا» فأجابه «جمال» بقوله:

- الحرب الحديثة بتعتمد على أربع ركائز أساسية؛ 1 ـ الجندي المدرب على أرض المعركة وطبيعتها والمستوعب لسلاحه، 2 ـ العقيدة القتالية الراسخة، 3 ـ قوة النيران وتطور السلاح، 4 ـ ثم القيادة المؤهلة من أول القيادة العامة لحد قيادات الكتايب والسرايا. تعالوا نقيم وضع الجيوش العربية مقابل العدو بناء على الركائز دي.

وهكذا شرع اليوزباشي «جمال عبد الناصر» يتحدث عن مقاتلي الجيوش العربية وعدم إعدادهم بالصورة المطلوبة فضلًا عن عدم خبرتهم بأرض المعركة، مقابل عصابات صهيونية تعمل على تلك الأرض منذ 1942م، فضلًا عن غياب العقيدة القتالية، حيث لا يعرف معظم هؤلاء الجنود لماذا يقاتلون، وأن كل ما قيل في الصحف والراديو للناس من تسطيح للقضية، وتصوير للحرب بأنها مساندة لشعب شقيق هو كلام فارغ! وكان على الحكومات العربية أن تشرح للشعوب أنها تدافع عن نفسها ضد الصهيونية والاستعمار على أرض فلسطين وليست تدافع عن فلسطين وحسب. ثم تحدث عن السلاح وكيف أن مصدر سلاح الجيوش العربية هو نفس مصدر سلاح الصهاينة! وهو بريطانيا! وهي بهذا تضمن تفوق النيران اليهودية على العرب، ولم تعلن انتهاء الانتداب إلا بعد أن اطمأنت أن عصاباتهم صارت متمكنة ومتفوقة، وقادرة على مواجهة رد الفعل العربي المتوقع. وختم قائلًا بصوت هامس:

- أما القيادة فأظن كلنا عارفين اللواء «المواوي» كويس! وباقي الجيوش العربية مش أحسن حالاً بكتير، كفاية القيادة البريطانية للجيش الأردني! الجنرال «جلوب» والكولونيل «نيومان» وغيرهم! الأهم من ده كله عدم وجود قيادة ورئاسة أركان موحدة للجيوش العربية.

- حيلك يا «جمال»! ده إنت شركتنا خالص!

- زي ما قلت! يا ريت أكون غلطان. في النهاية إحنا جنود ولازم نؤدي واجبنا ونحارب بشرف مهما كانت الظروف.

سرت الحركة في أرجاء القطار عندما هدأت سرعته وهو يدخل محطة غزة، ونزل الضباط الثلاثة مع غيرهم ليجدوا سيارات تنتظر كل مجموعة منهم لتتوجه بها إلى كتيبتها، فودع «جمال» رفيقيه وركب السيارة «هامر» التي كانت تنتظره لتحمله إلى نقطة تمركز الكتيبة السادسة خارج غزة، بينما ركب «عبد الحكيم» و«زكريا» سيارة أخرى تتجه إلى أسدود.

في الطريق سأل «جمال» عن الضباط الموجودين في غزة، وعندما سمع اسم الصاغ «محمود لبيب»، وعرف أنه منتدب في معسكر المتطوعين بغزة بناء على طلبه! لفت هذا انتباهه، وأشعل سيجارة وهو يفكر في معنى اهتمام «لبيب» بمعسكر المتطوعين تحديداً! كان يعرف أن «لبيب» أحد عناصر جماعة الإخوان المسلمين داخل الجيش المصري. وكان وجود عناصر لجماعة دينية داخل الجيش مقلقاً له! فماذا يفعل «لبيب» هنا تحديداً؟ سؤال

ستحمل إجابته أحداث عنف في مصر، تزامنت مع أحداث الحرب مباشرة فيما بعد، لكنه في تلك اللحظة استدعى وهو في السيارة ذكرياته مع ذلك التنظيم.

بدأت نقاط التماس بين «جمال» وبين الإخوان منذ كان في منقباد، بعيد تخرجه من الكلية الحربية، حيث التقى وزميله «عباس ناصر» بأحد الضباط الإخوان، والذي بدأ يحاول استقطابهما، وعندما سأله «عباس» عن رأيه فيما سمع من الضابط الإخواني، وهل يفكر حقًا في الانضمام لذلك التنظيم، أجابه:

- أكيد لأ! أنا مهتم بس بالتعرف على الشكل التنظيمي ودرجة اختراقهم لصفوف الجيش، لكن فكرة الانضمام ليهم دي انتهت للأبد يوم ما حضرت أنا وإنت درس التلات بتاع الشيخ «البنا». مصر وجيشها في ظل الاحتلال محتاجة الوطنية اللي تجمع مش الدعوات الدينية اللي تفرق، مش هيصلح أحوالها ظباط مرشدهم بيمد لهم إيده مقلوبة عشان يبوسوها! مصر مش هينقذها غير ظباط أحرار مش أتباع يا «عباس»[5].

(5) الإجابة بهذا المعنى وفقًا لشهادة اللواء عباس ناصر نفسه، في الحوار الصحفي الذي أجراه الأستاذ «هاني بدر الدين» في الأهرام العربي بتاريخ 29 سبتمبر 2012م، الذي شهد بنفور «ناصر» من الجماعة بعد حضور درس الثلاثاء وأنهم حاولوا تجنيد الزعيم الراحل في شبابه وفشلوا ولم يقسم أبدًا على المصحف والمسدس كما زعموا وإن احتفظ بصلات معهم من خلال بعض الضباط الأحرار مثل عبد المنعم عبد الرؤوف.

ثم كانت نقطة التماس الثانية عندما دعاه «عبد المنعم عبد الرؤوف» للتعرف ببعض الضباط «الوطنيين»، وعندما التقى بهم كان من بينهم «لبيب»! وعرف أنهم جميعًا منتمون لتنظيم الإخوان. سمع منهم «جمال» في زيارته لمقرهم، ولم يتحدث كثيرًا، ثم فارقهم ولم يصرح لهم بانطباعه. لكنه اعتذر عندما طلب منه «عبد الرؤوف» الانضمام للإخوان، بالقسم على المصحف والمسدس[6].

وصلت السيارة الهامر لمقر الكتيبة السادسة التي تسلم «جمال» قيادة أركانها فور وصوله، وبعد أن وضع حقيبة ملابسه في الغرفة الضيقة المخصصة لإقامته المؤقتة خرج يسأل عن الصاغ «محمود لبيب» فقيل له أنه في معسكر المتطوعين، فزادت شكوك «جمال»، واتجه نحو مخيم المتطوعين من فوره، لكنه لم يجد «لبيبًا»[7] هناك!

في المعسكر سأل زميله اليوزباشي «أبو عوف» عن تركيبة المتطوعين فأجابه:

– مصريين وسوريين وعراقيين ولبنانيين ومغاربة، واللي قدامك دول جزء من حوالي 3000 متطوع منتشرين في كل مناطق فلسطين[8].

(6) وهو ما لم يحدث أبدًا، رغم دعاوى ومزاعم الإخوان، والتي تطورت من القول بعضوية ناصر في التنظيم للقول بأن مؤسس الضباط الأحرار هو ذاك المدعو «محمود لبيب» وأن ناصر ورثه بعد وفاته! ووجه الحقيقة أن ناصر حرص على وجود صلات مع كافة التنظيمات وقتها حتى لا تكون ضده عندما تقوم الثورة.

(7) وفقًا لما سجله في يومياته يوم 3 يونيو.

(8) نسب الإخوان لأنفسهم هذا العدد كاملًا! والحقيقة أنها قوات عربية من أفواج المقاومة التي أرسلت لفلسطين بدعم مالي من جامعة الدول العربية.

- يعني مش كلهم من الإخوان زي ما بعض الصحف بتقول في مصر؟

- أكيد فيهم عشرات من الإخـوان، زي ما فيهم ماركسيين وقوميين! مش بس كدة، فيهم المسلم الشيعي، وفيهم الدرزي، وفيهم المسيحي! هيبقوا إخوان إزاي دول؟!!!

هكذا أجابه «عوف» ضاحكًا، قبل أن يسأله «جمال»:

- وإيه دور الصاغ «محمود بك لبيب»؟

- ظابط من المتطوعين لتدريب القوات دي، لكن القائد هو طبعًا القائمقام «أحمد عبد العزيز»[9]، عمود المقاومة الصلب اللي جمع القوات اللي قدامك دي ودربها وجهزها قبل ما الدول العربية تقرر دخول الحرب بجيوشها.

عاد «جمال» بعد هذه الجولة ليجد أمرًا بالتحرك ظهر اليوم التالي إلى أسدود حتى تقوم الكتيبة السادسة باستلام مواقع الكتيبة التاسعة فيها. في المساء أضاء «ناصر» مصباح الكيروسين (لمبة الجاز) وأخرج دفتر اليوميات الذي وجده في قيادة أركان الكتيبة عند

وقد نظمت تلك الأفواج اللجنة العسكرية التي شكلتها الجامعة لهذا الغرض وبدأت في إرسال أفواج اليرموك الثلاثة من مصر وسوريا وفلسطين، وفوج الحسين من شيعة العراق، وفوج الدروز من لبنان!

(9) فيما بعد ستحتار جماعة الإخوان في تاريخها المزيف بين ادعائين: الأول أن قائد المتطوعين كان الصاغ «محمود لبيب» والثاني هو ادعاء أن البطل الشهيد «أحمد عبد العزيز» نفسه كان منهم!!

وصوله، ليضعه أمامه على بعض شكاير الرمال، وسجل في سطرين أهم ما مر به في يومه! ثم سجل انطباعات الوصول الأولى. خاصة الحالة المعنوية السيئة للضباط والأفراد بعد معركة «الدنجور»، فقد تحركت الكتيبة لتطهير الدنجور من اليهود دون استطلاع أو إعداد للهجوم، ولهذا استطاعت قوة يهودية صغيرة أن تردهم، وأن تكبدهم خسائرَ كبيرة في الأرواح، لهذا كتب «جمال» في يومياته:

«تركت الكتيبة وراءها على أرض المعركة حول الدنجور بعض الضحايا، وكان من الضحايا إيمانها بالحرب التي تخوضها»[10]

وزاد الأمر إرباكًا ما سمعه الجنود عند عودتهم من راديو القاهرة، حين أذاع خبر نجاح القوات المصرية في تطهير الدنجور واحتلالها[11]!

لم يكن اليوزباشي «جمال عبد الناصر» يعرف الأهمية التي ستحوزها تلك اليوميات ذات يوم! كان الضابط الشاب يكتب لنفسه يوميات أول حرب يدخلها، ولم يتصور أن عينًا ستقع يومًا على ما خطه بيديه!

(10) العبارة حقيقية من واقع اليوميات.

(11) لاشك أن البيانات العسكرية الكاذبة في أي حرب خطأ كبير، لكن لماذا نستدعي دائمًا وقوعنا في هذا الخطأ في حرب يونيو 1967، خلال الأيام الثلاثة الأولى، وننسى أن هذا الخطأ استمر لعدة شهور في حرب فلسطين؟ إنها الرغبة الدائمة في جلد الحقبة الناصرية من قبل خصومها، ولا تفسير غير هذا.

في الصباح[12] كلف قائد الكتيبة رئيس أركانها؛ اليوزباشي «جمال»، بقيادة سرية استطلاع تتقدم الكتيبة عبر خط السير المرسوم، فتحرك «جمال» بجنود السرية من غزة في الواحدة والنصف ظهرًا، متجهًا للشمال الشرقي حيث طلب منه اصطحاب جماعة مدافع الهاون 3 رطل وجماعة المدافع 6 رطل المرابطة في قرية «دير سنيد»، ثم توجه نحو «المجدل»[13] لتأمين خطر سير الكتيبة، فوجدها خالية من العناصر اليهودية.

في المجدل رأى «جمال» بعضًا من ملامح مصر! آثار العمارة المملوكية في مسجدها الكبير، ملامح أهلها السمراء الرائقة، وهذا الشيخ العجوز الجالس عند جزع الشجرة يغني لنفسه منفردًا:

وسألت الاسم؟ قالت لي: سارة

زيّك يا حلوة ما في في الحارة

قالت لي الزيجة بدها جسارة

كلم أبويا .. ولا تيجي لهونا[14]

ذكرته الأغنية بأهازيج الريف والصوت الشجي لناي الصعيد! هذا الوطن العربي مشدود الأوصال بما هو أكثر من اللغة والتاريخ والعقائد! بمحصلتها جميعًا؛ بالمزيج الحضاري المكون لشخصيته!

---

(12) الوقائع والتفاصيل التالية وفقًا لما سجله ناصر في يوم الجمعة 4 يونيو.

(13) عسقلان قديمًا.

(14) من أغاني المجدل القديمة قبل التهجير، من بحث للكاتب خليل محمود مهدي.

في الرابعة عصرًا وصلت سرية الاستطلاع لأسدود، ووجد «جمال» صديقه «حكيم» في انتظاره على مشارف الموقع، وحاول أن يصحبه لخيمته ليرتاح من عناء الطريق لكن «جمال» أجابه:

- عاوز أمر على دفاعات الموقع الأول يا «حكيم»!
- تعالى ناخد «الهامر» ونمر على الخطوط الأمامية، حظك حلو النهاردة هادي لحد دلوقت، إمبارح كان الضرب شغال طول الليل. اليهود حاولوا يهاجموا القوات، بس الحمد لله قدرنا نردهم رغم الخساير في الأرواح والمعدات.

قفز «حكيم» لمقعد قيادة «الهامر» وركب «جمال» إلى جواره، وتحركت السيارة بمحاذاة الخطوط الأمامية. تعجب «جمال» من اصطفاف جميع القوات على شكل خط بطول أربعة كيلومترات، فعلق قائلًا:

- إيه التهريج ده؟ الموقع كله خط أمامي؟ ومن غير دفاعات غير حفر الأفراد؟ مفيش عمق ولا قوات احتياط[15]؟!! طبعًا لازم الخساير إمبارح تكون كبيرة بالشكل ده!
- «الرحماني» بيه هو قائد الكتيبة يا سيدي، وإنت عارفه، عمومًا بكرة كتيبتك هتستلم الموقع وتقدر تغير اللي إنت عايزه

صمت «جمال» وهو يفكر في هذا الوضع الذي يراه! لم يكن يتوقع الكثير من التخطيط والتنظيم الاحترافي

(15) وفقًا لتعليقات «عبد الناصر» الواردة في مذكراته تحت يوم ٤ يونيو 1948م.

للمعركة، ولكن لهذه الدرجة من الإهمال؟ لماذا تمددت القوات المصرية بسرعة على الساحل ولم تهتم بتأمين خطوط مواصلاتها التي صارت أطول من اللازم، ولم تهتم بالعمق الذي يحتله اليهود بمستعمراتهم! هناك رغبة في تمدد الجيش المصري على أكبر رقعة من أرض فلسطين، للإيحاء بدور كبير إعلاميًا، وهذا التمدد يخل بالمبدأ العسكري المعروف بالكتلة الصلبة، حيث تحرص الجيوش على عدم التمدد العشوائي وعلى التأمين الكامل لخطوط مواصلاتها وأطراف ألويتها قبل التفكير في التحرك بخطوة جديدة للأمام! هذا ما كان يدرسه في كلية الأركان!

انطلق «عبد الحكيم» مع كتيبته نحو «دير سنيد» وقد صدرت الأوامر لهم باقتحامها، وبدأت أخبار المعركة تصل لجمال، لقد كانت أعداد الضحايا تتزايد بشكل مستمر، الأمر الذي دفع «جمال» لاستقلال الهامر وقيادتها بنفسه نحو مستشفى غزة العسكري، وهناك كانت الأسِرَّة كلها مشغولة بالجرحى. سأل عن «عبد الحكيم» فعلم أنه كان بخير في آخر مرة شوهد فيها! عندما عاد «جمال» لكتيبته، وجلس كعادته في المساء يستمع لراديو القاهرة، كانت الأخبار تتحدث عن النصر الكبير الذي حققته القوات المصرية في دير سنيد!!

لم يكن يعرف أن عشرين عامًا سوف تمر، ثم تحين معركة وهو في موقع القائد الأعلى، فتقع القيادة العسكرية - التي كلفها - بأخطاء فادحة مشابهة، ليظل هذا التشابه مصدر ألمه وكمده منذ وقعت الواقعة في 1967م وحتى يلقى ربه.

صورة نادرة لعبد الناصر في حرب فلسطين

(3)

الدموع .. والدم

الزمان: 12 يوليو 1948م

المكان: كامب جوليس، بالقرب من عراق سويدان

تسلمت الكتيبة السادسة مواقعها في أسدود اعتبارًا من السبت 5 يونيو، وقام «جمال» بتغيير التشكيل الدفاعي قبل أن يستقر في مقر رئاسة الكتيبة في الحديقة القريبة من طريق المجدل ـ أسدود. بدأت المعارك مع آخر ضوء حين هاجم اليهود بمدفعية الميدان! فَهِم أفراد الكتيبة منذ اليوم الأول أن وضعهم هنا يختلف عن الأوضاع في غزة، فموقعهم الآن محاط بالمستوطنات من كل جانب. وقد استمر الهجوم طوال الليل، ثم تبعته أضواء متحركة تظهر من خطوط العدو، فبدأ الجنود التعامل معها بذخيرة الأفراد، حتى فطن «جمال» للخدعة وأمر بإطلاق ذخيرة كاشفة، ليهدأ الجنود بعد أن تأكدوا من عدم وجود هجوم من مشاة العدو، وأن الأضواء المتحركة هدفها استنفاد ذخيرتهم.

بعد الظهر اتصل به «عبد الحكيم» تليفونيًا، ليلخص له أخبار معركة «دير سنيد»، تحدث عن تفوق العدو في تسليح الأفراد، وختم كلامه بأن الافتقار للسلاح وللخطط يدل على أنهم يخوضون حربًا سياسية، أكثر من كونها حربًا عسكرية حقيقية، وهنا قاطعه «جمال» معترضًا:

مفيش حاجة اسمها حرب سياسية يا «حكيم». الاختيار العسكري قرار بتاخده القيادة السياسية كأحد خيارات الصراع، لكن خوض الحرب بعقلية السياسة خطأ كبير، مفيش جيش خاض معركة سياسية إلا وهزم فيها! زي هزيمة «ويفل» في معارك اليونان[16].

لم يتمكن «جمال» من مهاتفة زوجته السيدة «تحية» ووالده قبل التاسع والعشرين من يونيو، بعد أكثر من ثلاثة أسابيع من وصوله لأرض فلسطين. كانت المكالمة مع زوجته قصيرة وفق مقتضى الحال. سألته أكثر من مرة عن موعد عودته، وبالطبع لم تلق جوابًا شافيًا، فهو نفسه لا يعلم. كانت «تحية» دائمًا مثالًا للزوجة المتفهمة التي لم تثقل كاهله أبدًا - ولا حتى بكثرة الأسئلة - طوال أربعة أعوام هي عمر زواجهما، لكنه الآن يتفهم تمامًا سبب لهفتها تلك. فهي تجربة الحرب الأولى له، ولها معه بالتبعية!

في مساء ذلك اليوم التقى بحكيم الذي عاد من معركة «دير سنيد»، وكانت الأوامر قد صدرت لكتيبته بالهجوم على مستعمرة «نتساليم» اليهودية، ودعاه «جمال» لشرب الشاي في خيمته، حين قال له «حكيم»:

كان عندك حق واحنا في القطر يا «جمال»! متصورتش إن عصابات الصهاينة مسيطرة على الأرض بالشكل ده.

لو مكانتش مسيطرة كان الإنجليز أجلوا إعلان نهاية الانتداب لحد ما تسيطر!

(16) هذا هو الرأي الذي سجله «جمال» في يومياته نصيًا.

وكان «جمال» محقًا! فقد أنهى الإنجليز انتدابهم في ١٥ مايو 1948م بعد أن تأكدوا من وجود أكثر من أربعين ألف صهيوني مسلح ومدرب من عصابات الهاجاناة وشتيرن وغيرها! وهو أمر بدأ الترتيب له مبكرًا منذ 1942م وتسارعت وتيرته على قدم وساق منذ خريف 1947م.

سأله «جمال»:

- تفتكر هتواجهوا في «نتساليم» نفس الدفاع القوي اللي واجهتوه في دير سنيد؟

- المرة دي إحنا جاهزين أكتر! الظباط الشبان معنوياتهم ممتازة رغم خساير دير سنيد، عملت قرعة علشان نختار السرايا الأمامية، فتطوع اليوزباشي «محمود خليف» للتقدم بسريته، شاب رائع، إنت قابلته قبل كدة يا «جمال»، واتكلمت معاه «في موضوعنا»[17] وشفت درجة حماسه ووطنيته بنفسك.

(17) إشارة جمال عبد الناصر في يومياته، طبعة آخر ساعة المنشورة في مارس وإبريل عام 1955م، والمجموعة في كتاب بتحقيق محمود صبيح، في صفحة 311، لليوزباشي محمود خليف، والذي استشهد في معركة نتساليم، في يونيو 1948م، بوصفه أحد أعضاء تنظيم الضباط الأحرار، تثبت عدم دقة القول بأن الحركة ولدت في حرب فلسطين، حيث لم يكن ناصر قد التقاه في أحداث الحرب قبل شهادته، وهو ما يجعل بداية الحركة في القاهرة وقبل أحداث الحرب. لكن تنظيمًا آخر هو الإخوان المسلمون نشر هذه الفكرة حتى قال بها العدو والصديق، لينتحل لنفسه صلة بنشأة الحركة، نظرًا لوجود بعض عناصره في حرب فلسطين.

حان موعد النوم، وكان قصف المدفعية اليهودية متصلًا على أسدود، فصدرت الأوامر بالنوم في الخنادق، ولهذا افترش «عبد الحكيم» و«جمال» حفرة حول أحد أشجار البرتقال، ناما فيها حتى الصباح، قبل أن يتحرك «حكيم» ليبدأ الزحف بكتيبته نحو نتساليم. ودعه «جمال» قائلًا:

- عقبالنا .. لما تصدر لنا أوامر بالاشتباك.

- قريب إن شاء الله. خلي بالك من نفسك.

بعد يومين وصلت أخبار أول نصر على العدو في نتساليم! فسعد بها الجميع أيما سعادة، رغم النبأ المحزن للكتيبة عامة ولجمال خاصة، نبأ استشهاد اليوزباشي «محمود خليف» بعد بطولته التي أظهرها في ميدان المعركة، فضلًا عن إصابة «حكيم» بشظية وإن كان قد نجا منها وخرج من المستشفى الميداني.

مرت الأيام التالية متشابهة بغير اشتباكات عنيفة مع العدو، حتى كان يوم الثامن من يوليو، حيث صدرت أوامر من قيادة اللواء للكتيبة السادسة بالتقدم لاحتلال معسكر جوليس. ذلك المعسكر الإنجليزي القريب من عراق سويدان والذي احتله الصهاينة واتخذوا منه نقطة حصينة لتحرك هجومهم الليلي على أطراف الجيش المصري. وفي مساء التاسع من يوليو تحرك «جمال» مع زملائه «إسماعيل» و«رأفت» و«كمال بشارة» لاستشكاف كامب جوليس، وتسلل الأربعة لحديقة قريبة من الكامب تسمح لهم بالرؤية المباشرة، فقام

«جمال» برفع الواقع ورسم تشكيلات العدو ومدرعاته رسمًا تخطيطيًا.

وعندما بدأت الكتيبة في التحرك للاشتباك بالعدو انكشفت مأساة الحرب الكبرى أمام قائد الأركان الشاب! فقد كان في مقر رئاسة الكتيبة مع قائدها «جاد بك» ، والذي غير في التشكيل القتالي قبل بداية الهجوم ببرهة قصيرة، كما طلب تغيير مقر رئاسة الكتيبة الذي يوجد فيه حين اتضح له أنه في مرمى نيران العدو! ثم انتهى الأمر بتوجه القائد للخطوط الخلفية تاركًا مقر قيادة الكتيبة لرئيس أركانها (جمال)!! كما طلب من «جمال» أن يتولى قيادة السرية الأولى مباشرة بالتواصل مع أفرادها لأن قائدها استشهد في أرض المعركة! ثم عاد وأصدر له أمرًا بالخروج من مركز القيادة مع جماعة الهاون والاقتراب من جوليس لقصفها. كان باديًا على قائد الكتيبة أنه فقد أعصابه تمامًا! وتحير «جمال» من تلك الأوامر المتضاربة، كيف يمكنه قيادة الكتيبة بدلًا من «جاد» ومتابعة عمليات السرية الأولى، والخروج بذات الوقت مع جماعة الهاون!

خرج «جمال» بالفعل مع جماعة الهاون المكونة من أربعة مدافع من فئة 120 ملي. حتى استقر بها أعلى ربوة مكنتها من قصف مواقع العدو، ثم عاد ليحاول السيطرة على زمام الكتيبة من موقع القيادة الذي تركه «جاد»، عاد عبر التسلل في حقل من حقول الذرة المحيط بكامب جوليس، والتقى في طريقه بأحد عناصر الكتيبة، والذي أخبره باستشهاد «إسماعيل محيي الدين»! هذا هو الموقف الوحيد الذي فاضت فيه عيون «جمال عبد الناصر» خلال

حرب فلسطين! الجنود يسقطون في اقتحام يفتقر للقيادة الحقيقية، وهاهو رفيق سلاحه يسقط شهيدًا، لماذا كان هذا الموقف بالذات هو الموقف الذي أجرى الدمع العصي في عين جفت الدموع بها من طفولتها الباكرة؟

وصل لمقر رئاسة الكتيبة، وكان «جاد» قد اختفى منه منذ أكثر من ساعة، فحاول «جمال» التفاعل مع الإشارات الواردة من السرايا المقاتلة، بعضها يطلب الأوامر الواضحة للعمليات، وبعضها يطلب إمداد الذخيرة! وبعد ساعتين من القتال وجد «عبد الناصر» جندي مراسلة يدخل عليه مقر القيادة ويبلغه أوامر «جاد بك» بالانسحاب لمنطقة الجناين! وهنا ثارت ثائرة «عبد الناصر» ! القوات مشتبكة ووضعها القتالي ممتاز، فلماذا الانسحاب؟!! وهنا قام «جمال» بعمل كاد أن يعرضه لمحاكمة عسكرية، فقد اتصل بقائد اللواء مخترقًا قواعد التسلسل القيادي في الجيش! وأخبر اللواء بالوضع كاملًا وبأوامر قائد الكتيبة، فطلب منه قائد اللواء أن يستمر في موقعه ولا ينفذ أوامر قائده المباشر.

لكن عناد قائد الكتيبة «جاد بك» لم يتوقف! قام بسحب جميع السرايا التي نفذ قادتها أوامره، عدا السرية الأولى التي كان «جمال» يقودها مباشرة بعد استشهاد قائدها، وبهذا كاد العدو يحيط بالسرية الأولى من كل الجوانب! عندما علم «جمال» بانسحاب جميع السرايا، وأن جوانب السرية الأولى صارت مكشوفة، وأن الاتصال بها انقطع بالفعل، تأكد من وضع مسدسه في قرابه، وخرج من خيمته متجهًا لموقع تمركز قوات السرية الأولى خلف أحد الحوائط المتهدمة الذي يتخذونه ساترًا، ونجح

«جمال» في العودة بهم رغم الخسائر التي وقعت بقوات السرية بعد تعرية جوانبها! فقد فقدت ١٥ مقاتلًا وجُرِح آخرون!!

عندما التقت عيناه بقائد الكتيبة خاطبه بأسلوب حاد، قائلًا:

- يا «جاد بك» سيادتك عرضت حياة أفراد السرية الأولى كاملة للخطر بسحب باقي السرايا من حوالينا! اليهود كانوا محاوطينا تقريبًا ولولا نزول الظلام مكناش قدرنا ننسحب!

- يوزباشي «جمال»، إنت اللي اتسببت في ده، ولا فاكر اتصالك بقائد اللواء هيعفيك من المسئولية؟ بكرة الصبح هوقفك من قيادة أركان الكتيبة وأرجعك القاهرة للتحقيق معاك.

- وأنا منتظر التحقيق يا أفندم، التحقيق في كل أحداث قيادة الكتيبة إمبارح، ومن واقع الإشارات اللي معايا.

ارتعد قلب «جاد» لهذا التهديد السافر، واحتار بين أمرين كليهما مر! هل يترك هذا الضابط الذي تجاوزه؟ أم يحوله للتحقيق ويعرض نفسه معه للمساءلة؟

لكن الصباح قد أتى بأوامر واضحة من قيادة اللواء! عزل «جاد سالم بك» من قيادة الكتيبة وتسليم قيادتها لحسين كامل بك! وكذلك جاءت أوامر باحتلال السرية الأولى لقرية «جوليس»! سأل «جمال» قائد الكتيبة ليتأكد مما سمعه:

- كامب جوليس ولا جوليس؟
- إيه الفرق يعني يا جمال؟
- يا افندم «كامب جوليس» اللي حاولنا تطهيره إمبارح وفشلنا بيقع على تلة مرتفعة! علشان كدة موقعه مهم. قرية «جوليس» تقع على سفح التل، يعني احتلالها يخلينا تحت نيران العدو اللي هتنزل من كامب جوليس زي المطر! بكدة «جوليس» هتكون مصيدة مثالية للقوات.
- فَرَد «جمال» أمام القائد مجموعة من الصور التي التقطتها الطائرات للمنطقة، ووضح له الفارق بين الموقعين عليها! وهنا اقتنع «حسين كامل» بوجوب مناقشة قيادة اللواء في الأمر الصادر منها، وهل تعني بالأمر الصادر منها محاولة احتلال «كامب جوليس» من جديد، أم تعني القرية حقًا!

هذه المرة لم تعاند القيادة، وإلا لتمت تصفية السرية الأولى ومعها القوات المساعدة في مصيدة «جوليس»! ومع هذا صدر في اليوم التالي أمرًا جديدًا لم يكن مدروسًا بدوره بما يكفي، فقد صدرت الأوامر للسرية الأولى باحتلال موقع حاكم على طرق مواصلات مستعمرات العدو في النقب، هو طريق «عبديس - جوليس»، وكان معنى هذا أن تصبح السرية في مرمى نيران العدو التي تنهمر بكثافة من المدافع الأوتوماتيكية المركبة على تلال النجبة! فكان المنطقي تطهير التلال أولاً ثم احتلال ذلك الموقع الحاكم! لكن القيادة فضلت

احتلاله مبكرًا لأهميته الحيوية، ولصعوبة تطهير تلك التلال واحتياجها لوقت طويل!

لهذا جاء قائد السرية الأولى المكلف منذ الأمس بقيادتها عوضًا عن قائدها الشهيد لجمال بوصفه أركان حرب الكتيبة، ووقف أمامه وهو يفرد خريطة ملونة للمنطقة، ويشير للموقع المطلوب احتلاله، ولمرتفعات النجبة المحيطة به ويقول:

- دي مغامرة مجنونة!

لكنها حيوية قوي في المرحلة دي! أنا جاي معاك، موعدنا مع أول ضوء!

كان موقع «جمال» الطبيعي بوصفه قائدًا لأركان الكتيبة في موقع الرئاسة مع قائد الكتيبة، وكان يعلق على تعمد بعض الضباط الخروج دون مبرر مع القوات، وتركهم مقرات الرياسة فارغة، بأن هذه «مظاهرات شجاعة دون مبرر عسكري معقول»، لكنه فضل الخروج هذه المرة!! فعليه تشجيع قائد السرية، فالموقف خطر فعلًا لكن المهمة حيوية كذلك.

وبالفعل تحرك مع السرية عند أول ضوء، واحتلت السرية مواقعها رغم كثافة النيران الموجهة من مرتفعات نجبة نحوها، ومن بعض قوات العدو التي اتخذت من حقول الذرة ساترًا واقتربت لتشتبك مع القوة المصرية! وهكذا وقع اشتباك «جمال» الشخصي الأول مع العدو! وعندما احتدم القتال لم يعد المسدس مجديًا، فالتقط بندقية الجندي الذي سقط شهيدًا بالقرب منه، وكانت من طراز «تومسون نصف آلي» الشهيرة باسم «تومي»

إنجليزية الصنع، وأخذ ساترًا من إحدى ناقلات الجنود التي كانت تعرف في ذلك الوقت في لغة العسكرية باسم «الحمالات»، كان رصاص العدو كثيفًا ويأتي من ناحية أحد التلال! بالكاد سمع صوت زميله «سامي» وهو يقترح عليه:

- كدة هنفضل طول اليوم هنا! خلينا نتحرك بالحمالة ناحية التلة اللي هناك ونكشف موقع إطلاق النار.

- طيب اسحب الفيكرز على الحمالة ويالا بينا.

تعاون ثلاثة جنود مع «سامي» لسحب بندقية الفيكرز الآلية - إنجليزية الصنع المثبتة على حامل الإطلاق - نحو الحمالة، واستقلها «جمال» و«سامي» مع الجنود الثلاثة وانطلقوا نحو التلال، لكنهم عند وصولهم وجدوا التلة خالية، ووجدوا فوارغ الطلقات في موقعين أكدت لهم انسحاب الصهاينة من فوقها لتوهم.

في طريق العودة، وكان يركب بجوار «سامي» في المقعد الأمامي للناقلة البدائية، حانت التفاتة من «سامي» نحو قميص «عبد الناصر» فامتقع وجهه وهو يقول:

- إنت اتصبت يا جمال؟

تجهم وجه «جمال» وهو ينظر لقميصه المبلل بدمه، ليرى الجرح فوق جيبه الأيسر، عندما تحسس جلده تحت القميص وجد الجرح فوق القلب مباشرة، فبدأ يشعر بالدوار! وكان أول ما خطر بباله بطبيعة الحال هو «تحية» وابنتيه «هدى» و«منى»! حاول «سامي» إيقاف السيارة،

فطلب منه «جمال» الاستمرار، ثم طلب منه طلبًا غريبًا! طلب منه أن يشعل له سيجارة[18]، وقد تناولها «جمال» بيمناه، بينما يسراه تضغط على جرح صدره لتقلل نزيف الدماء، وسحب من السيجارة نفسًا عميقًا!

لم يكن خائفًا .. لم يكن نادمًا .. لم يكن حزينًا .. كان بعقله سؤال واحد يدور: هل هذه هي النهاية؟ هل هذه هي النهاية؟

عبد الناصر في فلسطين

(18) حقيقة وفقًا لليوميات.

(4)

الهموم تختارنا

الزمان: 15 يوليو 1948م

المكان: مستعمرة بيرون إسحق، تقاطع طرق عراق سويدان

دخل «جمال» مستشفى المجدل العسكري وهو يسير على قدميه، ويرفض مساعدة رفاقه على السير، ويضغط جرح صدره بالمنديل الغارق في الدماء. في غرفة العمليات الصغرى رقد «جمال» بغير تعقيم وبملابسه العسكرية أمام الطبيب الشاب، وهو يقول:

- صارحني بحقيقة الوضع دون تردد لو سمحت.

خلع الممرض عن «جمال» ملابسه كاشفًا جرح صدره، وأضاء الطبيب كشاف العمليات العلوي، وهو ينحني على الجرح ليفحصه، ويزيل عنه الدماء المتخثرة بالشاش المعقم المغموس بالكحول، هز الطبيب رأسه ولم يجب «جمال» الذي كرر عليه السؤال، فعلق الطبيب قائلًا:

- سامحني، الجرح غريب شوية، مبنشوفش الشكل ده كل يوم. قل لي؛ إنت اتصبت إزاي؟

طبيب المستشفى العسكري لم ير مثل هذا الجرح من قبل؟ لماذا؟ حتى لو كان جرحًا نافذًا ووصل للقلب فهذا أمر اعتيادي بالنسبة لطبيب بمستشفى عسكري؟!! عندما شرح

«جمال» ظروف الإصابة، فهم الطبيب منها أن مقذوفات رصاص البندقية الآلية قد اصطدمت بجسم صلب - ربما قائم السيارة - قبل وصولها لجسم الضابط الشاب، ولهذا قلت قوة اختراقها وتشوه شكلها، فأحدثت هذا الجرح غير المنتظم. وتأكدت نظريته تلك التي شرحها لجمال مع استخراجه شاظيتي الرصاص من عضلات صدره. قام بتقطيب[19] الجرح، وتضميده جيدًا، وطلب منه أن يمضي ليلة في المستشفى، قبل أن يصرح له بالخروج والعودة لكتيبته. في اليوم التالي، وخلال خروجه من المستشفى التقى بأحد زملائه، فوجد فك زميله يسقط من الدهشة لرؤيته! وحين استعلم عن الأمر عرف أنهم سجلوه في قوائم الخسائر بعدما وصلت لهم أخبار إصابته برصاصة نافذة في القلب. فقال «جمال» ممازحًا:

- المرة دي مكانتش نافذة .. عمومًا طول ما بنحتل مواقع مكشوفة أمام مدافع العدو مسيرها تحصل!

كان الطبيب قد نصحه بالراحة لمدة يومين بعد خروجه من المستشفى، لكن الحاجة لوجوده في مقر رئاسة الكتيبة - خلال اشتباك سراياها في المعارك - كانت ملحة بما يكفي لتجعله يعود من المستشفى لمقر الرئاسة مباشرة قبل ظهر 13 يوليو، ليتلقى اتصالاً من السرية الأولى يفيد بأنها في موقف حرج، حيث حاصرتها كتائب الصهاينة! فقد خرج اليهود من حقول القصب في الساعات الأخيرة من الليل، ووصل الأمر لحد الاشتباك بالسونكي والسلاح الأبيض مع جنودنا في خنادقهم التي

(19) الغرز الجراحية.

حفروها فور وصولهم، لكن الجنود صمدوا ككتل الصخر رغم نيران المرتفعات المحيطة، ورغم تقدم مشاة العدو!

برغم هذا الصمود البطولي، فقد لفتت نظر «جمال» إشارة وصلت للقيادة أول الليل من أحد ضباط السرية. لفت نظره تحديدًا التعبير الذي استخدمه حين قال «اليهود هجموا خلاص .. رحنا خلاص»[20]، ومع ذلك جاءت إشارات بعدها تفيد بالصمود، وبانسحاب مشاة العدو تاركين خلفهم قتلاهم، رغم استمرار حصار السرية بالنيران! وبعد أن حرك «جمال» مجموعتين من المشاة ومجموعة من مدفعية الهاون لإمداد السرية، أشعل سيجارة وقد ملكت عليه العبارة التي استخدمها الضابط «المرعوب» كيانه بالكامل.

لماذا تشعر القوات بتلك الرهبة من هجوم عصابات اليهود؟ نعم لا شك أن تلك العصابات مدربة جيدًا، وقد ضمن لها الإنجليز التفوق على الجيوش العربية في التسليح كمّا وكيفًا، لكن المقاتل العربي أشجع من هذا!!! والمقاتل الصهيوني ليس بتلك البسالة!! ما هذا الفارق المذهل بين استهانة الجماهير التي تقرأ الصحف بالحرب وبالعدو، وبين تهويل المقاتلين هنا في قوة العدو وإمكاناته؟!!

تنبه «جمال» للعبة الحرب النفسية هنا، يأتي المقاتل لأرض فلسطين وهو يظن نفسه في نزهة عسكرية، لا بسبب الصحافة والإذاعات الحربية فحسب ولكن بسبب

(20) قيلت العبارة بالفعل في الإشارة وفق ما جاء في المذكرات

الإعلام العسكري الحماسي بطبيعته كذلك! ثم يفاجأ بنفسه في معركة حقيقية ويجد نفسه في مواجهة خصم شرس لا يتوقف عند حدود أخلاقيات الحرب وأعرافها!!! فيكون هذا الانهيار النفسي الذي يراه. أما العنصر الأهم فهو الإعداد الفكري للجنود! كل الجنود العرب يظنون أنفسهم هنا في موقف «جدعنة» مع قطر عربي شقيق!! ولا يعرفون أنهم يدافعون عن أقطارهم وأسرهم ذاتها، وأن فلسطين كانت فقط أرض المعركة الأولى، ونقطة البداية التي اختارها العدو.

تأزمت أوضاع السرية الأولى أكثر فاتصل «جمال» بالسرية الرابعة لتستر انسحاب الأولى بنيران كثيفة، واصطحب معه قائد جماعة المدفعية في سيارة جيب، ليرشده للموقع المطلوب قصف مواقع العدو منه لتأمين انسحاب السرية الأولى، ثم فكر في محاولة الوصول بالجيب لمواقع القوات المحاصرة عن طريق حقل الذرة، فقد عرف الطريق بعد مغامرة الأمس التي انتهت به جريحًا. وبالفعل وصل «جمال» لموقع زملائه الذين تركهم قبل أقل من أربع وعشرين ساعة، وكانت سعادته غامرة بالروح المعنوية التي صار عليها الجنود، والصلابة التي اكتسبوها بعد لقاء العدو واكتشافهم أن عصابات اليهود ليست غيلانًا ولا مصاصي دماء! لكن الخسائر كانت كبيرة، ولهذا قاد الانسحاب بنفسه بعدما بدأت المدفعية في ستر انسحابهم بنيران ثقيلة.

بعد الانسحاب عاد «جمال» لمقر رئاسة الكتيبة وبقي به حتى فجر اليوم التالي، عندما ارتجَّ كل شيء حوله! فقد سقطت أربع قذائف في مركز القيادة نفسه! وفي

لمح البصر وجد نفسه وسط أربعة شهداء وثلاثة مصابين، وغطت الشظايا الملوثة بالدماء مع الركام كل شيء، خرج مسرعًا نحو نقطة تمركز مجموعة مدفعية الميدان، ليطلب منها ضرب مصدر القذائف الذي كان مستمرًا في قصف قيادة الكتيبة حتى سكتت النيران المعادية، ووصلت إليه إشارة مع المراسلة تقول بأن اليهود يحتلون الموقع الذي انسحبت منه السرية الأولى، فطلب من المدفعية قصف الموقع بكثافة.

في اليوم التالي وصلت الكتيبة التاسعة لغيار[21] الكتيبة السادسة، وعندما كان «جمال» يسلم موقعه لزميله «رؤوف محفوظ» أبلغه الأخير بالأخبار الكئيبة للكتيبة الثالثة! فقد هجمت بشجاعة على مستعمرة «بيرون إسحق»، واحتلتها بالفعل، لكن وقع الهجوم المضاد مع أول ضوء وانقلب الأمر على الكتيبة المصرية، أجابه «جمال» قائلًا:

- استقبلت إشارة استغاثة من (ك3) مع أول ضوء، وبعت لهم بالفعل سرية للمعاونة، لكن السرية وصلت وكان الموقع بالكامل محتل بالصهاينة! إزاي ده حصل؟

- قائد (ك3) معملش تأمين على مداخل المستعمرة! استطلاع العدو شاف كدة فعرف إن الطير سهل،

(21) تعبير عسكري يعني تبادل المواقع بهدف المناورة بالقوات وتمكين الكتيبة التي اشتبكت مع العدو لمدة طويلة من إعادة ترتيب صفوفها واستعاضة خسائرها

القوات المصرية مكملتش ساعتين في الموقع وتم احتلاله من جديد!

انفعل «جمال» وهو يقول:

- إحنا في حرب مش في مناورة بالذخيرة! اللي يهمل فينا يستاهل اللي يجراله. لكن إيه ذنب الجنود دول؟ إيه ذنب ولادهم؟ وإيه ذنب فلسطين في كل الإهمال اللي حوالينا ده؟ فلسطين كدة بتضيع منا حتة حتة! ولو ضاعت كلنا ضعنا.

قال له «رؤوف» وهو يربت على كتفه مواسيًا:

- لما وصلتني الأخبار مع الجنود المصابين اللي نجوا من معركة «بيرون إسحق» افتكرتك وإنت بتقول: الحرب مش ممكن تبتدي من هنا ، الحرب هناك في القاهرة وبقية العواصم العربية. والحرب هناك مش هيقوم بيها لا أحزاب الباشوات ولا الإخوان يا «جمال». الإخوان وهم بيتكلموا عن مصر بينسوا إن فيها دين تاني .. بينسونا!!

أجابه «جمال» مراعيًا نبرة المرارة في صوت الضابط القبطي:

- مش هيفرق مع الإخوان يا «رؤوف» لو كنت إنت قبطي وأنا مسلم! الإخوان تنظيم ديني، والنهاردة عاوزين يبقوا تنظيم ديني مسلح، والتنظيم العقائدي المسلح دايمًا يعتقد إنه ملك القدرة على الدنيا والآخره، وعمره ما يشوف غير نفسه! وبعد

تسليحهم بذريعة حرب فلسطين .. بقوا جزء من مشكلة مصر مش جزء من الحل!

- طيب والحل يا «جمال»؟ تفتكر فيه حل؟

- أكيد فيه.

قالها «جمال» متحمسًا، وهو يفكر في مفاتحة «رؤوف» في أمر تنظيم الضباط الأحرار الذي بدأه مع مجموعة محدودة جدًا من رفاقه في القاهرة قبل وصولهم هنا، ثم حبس لسانه ـ لأن الظروف المحيطة لا تسمح بمفاتحته ـ وتريث وهو يقول بنبرة قلقة:

- المشكلة هي؛ على ما تحل الدول العربية مشاكلها الداخلية، هيكون العدو واقفًا على بابها بالفعل! وهيكون بلع فلسطين وبقت دولته الجديدة شوكة في جسم العرب.

- همومك كتير يا حضرة اليوزباشي.

ابتسم «جمال» بمرارة وهو يقوم واضعًا الكاب فوق رأسه وضابطًا مسدسه في جنبه، ويقول:

الهموم بتختارنا مش احنا اللي بنختارها .. خليني أقولك خبر كويس على الماشي، قرار ترقيتي طلع بالفعل من القاهرة بعد المعركة اللي فاتت والإصابة، ومنتظر وصوله علشان أعلق التاج.

- ألف مبروك يا «جمال».

قالها «رؤوف» معانقًا قبل أن يغادره جمال لنقطة التمركز الجديدة للكتيبة السادسة. حيث اختارت لها

القيادة معسكرًا إنجليزيًا مهجورًا للتمركز فيه بجوار نتساليم. وكان في ذهن «جمال» أن يستغل الفرصة ليعيد تنظيم صفوف كتيبته بعد المعارك الماضية، لكن الأوامر عاجلته في المقر الجديد بإرسال سرية دعم لمعركة ناشبة في أسدود، وسرية أخرى للمعاونة في عراق المنشية! فتبخرت خطة الوقفة التعبوية التي كان يفكر فيها. وتكررت الأوامر حتى خرجت كل سرايا الكتيبة السادسة لمساعدة كتائب أخرى، وبقي في المعسكر «جمال» وقائد الكتيبة .. قادة بلا جنود!!!